مولد شاعر

للآنسة نعمت فؤاد

أرى خلل الرماد وميض نار ... وأخشى أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري ... أليقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لجنبهمو نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

بهذه الأبيات سار كتاب نصر بن سيار والى خراسان إلى مولاه أمير المؤمنين مروان بن محمد . وكانت الدعوة للرضا من « آل محمد » تسير بنجاح فى أنحاء دولة العروبة لاسيما فى خراسان موطن الفرس الذين تغلى صدورهم حقدا على بنى أمية . ألم يدعوهم « الموالى » إذلالا عليهم بالسيادة العربية ؟ ألم يقصوهم عن المناصب الرفيعة ضنا بها على غير العرب ؟ لينتقم الفرس إذن وليهتبلوا الفرصة وها هى ذى قد حانت . إن العرب منقسمون على أنفسهم إلى هاشميين وأمويين كما انقسموا فى السقيفة إلى مكيين ومدنيين فليضربوا هؤلاء بهؤلاء عسى أن يذهبوا جميعاً فينفسح الطريق لعودة المجد السليب .

بث الفرس الدعوة لبنى هاشم عساهم إن آل الملك إليهم عرفوا لهم صنيعهم وأنابوهم عليه نفوذا حرموه ، وجاها ولى حين آذن القدر شمسهم بالمغيب .

وانضم إلى الفرس ربيعة واليمن ولم يبق مع بنى أمية إلا المضريون . وكان مروان خليقا بالقضاء على الثورة والانتصار عليها كما انتصر معاوية على أبطال صفين لولا أنها اندلعت فى كل مكان فهى ثور .

إذن حان القيام كما قال نصر بن سيار فأرسل الخليفة الجيوش إلى أطراف الدولة لتطفىء الفتنة وتقر السلام .

وسار الجيش الرئيسى إلى خوز ستان جيش لهام لا تتبين العين جنوده من الغبار المتار . وما إن دخل الأهواز عاصمة خوز ستان حتى ألقى الرعب فى القلوب قبل أن تمضى السيوف وتفوق السهام وتشرع الرماح .

وسر الخليفة إذ اطمأن على هيبته وسلطانه فى ملكه وفرح الجنود إذ كفاهم الله القتال . ورجع القائد بجيشه بعد أن ترك قوة تقمع من تحدثه نفسه بالوثوب .

ألم تخبر بنى التاميز عنا ... وقد بعثوك مندوبا أمينا
بأنا قد لمسنا الغدر لمسا ... وأصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نوايا كم فلمتم ... وإن برح الخفاء محايدينا
ضربتم حول قادتنا نطاقا ... من النيران يعيى الدارعينا
على رغم المروءة قد ظفرتم ... ولكن بالأسور مصفدينا

ولعل القارىء قد نظر من وراء هذه الأبيات الحزينة روح قائلها اليائس ، ولا جرم فهى زفرة حارة صعدت من صدر ضيق يشعر أنه فى عهده الأخير

ولا نختم هذا البحث دون أن نشير إلى الأبيات التى مدح بها حافظ أخلاق الانجليز أثناء قيام الحرب العالمية الأولى فقد خدع رحمه الله — وكان طيب القلب — بما كانوا يصفون به أنفسهم من دفاع عن الحرية ، وتضحية فى سبيل المبادىء الإنسانية ، فقال يخاطب السلطان حسين كامل .

ووال القوم انهمو كرام ... ميامين النقيبة أين حلوا
وليس كقومهم فى الغرب قوم ... من الأخلاق قد نهلوا وعلوا

فما درهم حبال الود وانهض ... بنا فقيادنا للخير سهل

وما لبث الشاعر أن أدرك خطأه الواضح . حيث صدق دعايتهم الجوفاء ، فابرى يشهد بأخلاقهم مستغفرا عن ذنبه السالف وآخر ما قاله فى ذلك .

لاتذكروا الأخلاق بعد حيادكم ... فصابكم ومصابنا سيان
حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا ... أخلاقنا فتألم الشعبان

ثم استسلم رحمه الله إلى نومه الطويل

(وبعد) فقد كان الأولون من المؤرخين ، يذكرون الحادث السياسى مشفوعا بما قاله الشعراء فيه ، وقد رأينا كثيراً ممن أرخوا فترة الاحتلال الداجيه قد تنكبوا عن هذا الطريق ، فلم يسجلوا ما ناح به الشعراء فى هذه المحنة القاسية ، على ما فيه من ترويح للباحث ، وإمتاع لروحه الملول ، ولك أن تقدر سرور القارىء حين يرى بجانب تاريخ كرومر نفثة حارة لشاعر قوى كمحمد حافظ ابراهيم .

(الفكر الجديد)

وكان « هانىء » ممن بقى فى الأهواز من الجنود . وتاقت نفسه يوما إلى الخلوة فى ناحية من المدينة يتملى الذكريات ويحيا فى الشام بفكره ساعة أو بعض ساعة يستجلى منازل صباه ، ومغانى هواه ، وتربة آبائه وأجداده على الذكرى تفيض على قلبه سلاما يهدهد حنينه ويفئا لوعته .

وأطاعت « هانىء » قدماه حتى انتهى إلى النهير الذى تقع عليه مدينة الأهواز والذى يصب فى شط العرب . فرآه أبيض الصفحة صافيا تتهامس موجاته ويميل النسيم بأغصان الشجر عليها فتخالها تسترق السمع .

ويسير « هانىء » مع النهر فى اتجاهه مأخوذا بسحره ، طروبا من الأغنية الرائعة التى تتألف من هميس النهر ، وهفهفة النسيم ، ومناغمة الشجر .

وسار « هانىء » بضع خطوات ثم وقف فجأة مبهوتا أو كالمبهوت ! أى فتاة هذه التى راعته هذه الروعة ؟

إنها فارسية صغيرة لم تتجاوز بعد عامها العشرين قد أخذت مكانها تحت شجرة فينانة على شاطىء النهر . وكانت بنت الفرس تتألق فى ثوب أرجوانى جميل قد أرخت غدائر نصف منحلة كليل امرىء القيس إذ كانت تنهدل على كتفيها تارة ويلقى بها النسيم على صدرها تارة أخرى فى حركة تشبه موج البحر .

ورجعت الفتاة إلى قرينتها « استانة أنار » ومعناها بالفارسية باب النهار وصاحبنا فى إثرها لا يلوى على شىء وهناك عرف أن اسم فتاته « جلبان » ومعناها بلغة قومها « غصن الورد » .

لكأنما وضع لها هذا الاسم الجميل بعد ما تفتحت من كمها فهذه القامة الفارعة أشبه شىء بالغصن الريان ، وهذا الوجه المشرق الذى يتورد إلى كل من لاقاه هو فى جمال الورد يجتذب إليه الفراش من كل لون .

ولم يمض على زواج « هانىء » من جلبان شهور حتى دعى إلى الانضمام إلى الجيش المحارب .

ولبى الفتى العربى داعى الوطن وداعى العصبية التى طالما فخرت على الفرس .

والتقى الجيشان عند نهر الزاب وكان قتال ... قتال رهيب يحضأ فى ناره الفرس الذين هزمهم العرب فى القادسية واليرموك فأرادوه ثأراً يبرىء النفوس التى تتمزع من الغيظ ، ويغسل العار .

وعثر جد أمية لما أراد الله أن يذهب بدولتهم وطاحت الحرب بمروان ورجع جنود الأمير عندما أصبحت المقاومة عديمة الجدوى وآب هانىء إلى عروسه كاسف البال تمس النفس لهزيمة العرب فوجدها جذلة لظفر الفرس مخمورة بنصرهم .

ولما كان القلب لا يعرف الجنس فى هواه فقد عاش الزوجان فى سعادة لا يرنق صفوها كدر .

وولد لها فى دولة العباس ابنها « الحسن » الذى عرفته قصور الرشيد والأمين نديما شاعراً ، وعرفته بغداد طائرها الفرد الذى طالما شدا بحضارتها وشاد بمجدها وصور نعيمها ، وغنى بجمالى أنسها . وعرفته البصرة شادياً للعلم والأدب والشعر فى مسجدها ومربدها ثم عالماً شاعراً ، وعرفته مصر شاعراً نخلا يفد عليها مادحا للخصيب مدحته البلقاء التى مطلعها :

أجارة - بيتينا أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

تلك القصيدة التى عارضها شاعرنا البارودى بقصيدته التى مطلعها هذا البيت الرقيق الشجى :

تلاهيت إلا ما يجن ضمير ... وداريت إلا ما يثم زفير

* * *

هذا هو الحسن بن هانىء الذى كنى نفسه أو حمله أستاذه خلف الأحمر على التكنى بكنى اليمن فتكنى أبا نواس .

شعث فؤاد

ظهـــر كتاب

عائشـــة والسياسة

للأســـتاذ سعيد الأفغانى

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر